الباب الأول
الإسلام والمسئولية

تمهيد

بادئ ذى بدء نود أن نذكر بأن المسلمين الصادقين ، ليس عليهم من بأس فى مجاز اللغة أن يكونوا بأخلاقهم هم الإسلام .ولكن الإسلام شيء ومجموع المسلمين فى هذا العصر شيء آخر .وقد صور القرآن الكريم أمة الإسلام بأنها خير أمة أخرجت للناس ، وجاء الواقع العلمى تطبيقا لهذا الوصف فى عصر النبوة وخلافتها الراشدة . ثم تغير التطبيق واختلف الواقع فكان لا بد أن تتغير الصورة وتختلف ، ولم يعد خافيا أن حياة المسلمين اليوم لا تصلح مقياسا لتقيم التأثير العظيم لمنهاج الوحى فى أمة الإسلام ، اللهم إلا من زاوية عكسية يتخذ فيها وبعد المسلمين عن الدين سببا مباشرا لتخلفهم وضياعهم ، برهان ذلك قانون الوحى نفسه .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] .

ومن هنا كان حرص الأقدمين من السلف الصالح على اعتناق هذا القانون وتقرير آثاره ، فلا حجة على الدين بخطأ الأفراد والجماعات مهما بلغ شأنهم وارتفعت أقدارهم ، ولا عصمة لغير الرسل والأنبياء مهما علت المقامات ، ومن الإنصاف الواجب للدين أن تكون هذه المتغيرات فى الناس وفى التطبيق محررة واضحة فى معارف المسلم ومعتقداته ؛ لأن الغفلة عن هذه الحقائق تضر بمبدأ البلاغ والدعوة للإسلام أبلغ الضرر من حيث يتصور كثير من غير المسلمين أن الواقع المؤسف الذى يعيشه المسلمون اليوم له ارتباط ما بالدين الإسلامى نفسه ، فيبدو الإسلام لمن يجهله وكأنه يحوى فى تعاليمه ووصاياه ما يؤدى إلى تواكل أبنائه وتخلفهم وافتقادهم عناصر المسئولية الجادة التى تؤهلهم لمواكبة العصر وحضارته فى تسخير الكون والحياة .

ومع أن هذا التصور يناقض فى جملته وتفصيله ما يرشد إليه الإسلام ، إلا أن

ظروف النجاح المادى للدول الغربية قد شكل ظاهرة سيئة ساعدت ـ بالافتعال والمغالطة ـ على محاولة إحكام الشبهة حول الإسلام واتهامه بالجمود والتخلف .

والواقع أن الذى يتأمل حال الإسلام وحال المسلمين يهوله الأمر ، فالإسلام خاتم الأديان وأشملها وفى تعاليمه كل أسباب النجاح والرقى والتقدم بينما المسلمون اليوم ـ كما سبق أن ذكرنا ـ فى أوضاع لا تتفق مع طبيعة هذا الدين العظيم .

أضف إلى ذلك أن خصوم الإسلام فى الغرب والشرق ـ مع أنهم هم المسئولون عن تخلف المسلمين ـ فقد استغلوا أبشع استغلال ظاهرة التخلف فى الكيد للإسلام والنيل منه بإقصائه عن مناهج التعليم ومناشط الحياة ، وقد مكنت لهم سيطرتهم التامة على وسائل الإعلام فى البلاد المحتلة تسديد ضربات منتظمة ومستمرة للمسلمين ، ولم يعد خافيا أن أعداء الإسلام مهما تعددت واختلفت جبهاتهم فهم جميعا متواطئون على حرب الإسلام سواء فى ذلك الصليبية أو الصهيونية ، والرأسمالية أو الشيوعية ، وقد اصطنعت كل جبهة من هذه الجبهات أجيالا من أبناء المسلمين ، فمنهم من نشأ وتربى فى حجر الرهبان الغربيين كما حدث فى دول أفريقيا التى قُسِّمت وجُزِّئَت وعُزلت حتى فارقت هذه الأجيال دين آبائها فراقًا مطلقا وكاملا ، ومنهم من غزته الأفكار الشيوعية فى عقر البلاد العربية حتى فتن عن الإسلام وفقد ولاءه لعقيدته وأمته ، ومنهم من أرضعه الاستعمار الغربى عن طريق الغزو الثقافى لبان الحرية بالمفهوم الغربى بكل ما فى هذا المفهوم من تناقض مع الدين فتخرجت بهذا الأسلوب أجيال شائهة بقيت تحمل من الإسلام مظاهر الأسماء والنعوت .

وخلعت حضارة الغرب والشرق على أتباعها من هؤلاء وهؤلاء ألقابا علمية وأدبية فى عالم الفكر والفن والثقافة ، وهيأت لهم وسائل الاتصال بالناس مقروءة ومسموعة ومرئية ، وهكذا وجد فى المجتمع المسلم جيل من أبنائه يتفقون مع

أعدائه فى فهم مشترك واحد حيث كان الهدف المشترك لهم هو عزل الإسلام عن الحياة العامة . فما لقيصر لقيصر وما لله لله ، ولا بأس عندهم أن يتحول المسجد إلى متحف مهجور ، لتبقى لهم الحجة بعد هذه الحرب الضروس ، أنهم أبدا لا يحاربون الإسلام كدين ، وأنهم أهل رقى وحضارة وحرية تحترم الأديان ، فهم يضعون الثريات فى المساجد كما يضعون الشموع فى الكنائس .

وليس غريبا أن يبتلع الطعم المسموم كثيرون خصوصا أولئك الذين يعدون بعناية للإمساك بمقاليد الأمور من أبناء البلاد ، ذلك أن السلاح الذى استعمله أعداؤنا كان يتصف بالنعومة فى هذا الجانب ، لأنه يتصل بالعلم والثقافة ومناهج التعليم بعد عزل الروافد الأصيلة ، وسد قنوات التراث حتى أفرغوا العقول والقلوب من مضامين العقيدة الإسلامية ومنهاجها وأخلاقها وسلوكها ، فلم يعد فى نفوس هذه الأجيال المصنوعة بيد الاستعمار إلا ثقافة الغرب واحترامها .

*****

الفصل الأول
دور القرآن والسنة فى التكوين والتنمية للفرد والمجتمع

بناء على ما تقدم أصبح من واجبنا أن نعيد وصل شبابنا بتراثه الخالد ، وعقيدته الراسخة الحرة ، وشريعته السمحة ، عن طريق توضيح موقف الوحى قرآنا وسنة من تنمية الشخصية الإسلامية وتربيتها « أفرادا وأسرا وجماعات وأمما » على تحمل مسئولية الحياة المتكاملة إزاء النفس والغير فى جميع الاتجاهات والزوايا بحيث تتضح التزامات المسلم وضوحا بينا نحو ربه ودينه ونفسه وأهله وجيرته وأمته وسائر العلاقات التى تربطه بالحياة والأحياء والكون من واقع النصوص القولية والتطبيقات العملية التى باشرها سيدنا رسول الله ﷺ بهدف إرساء هذه الأصول والقواعد فى المجتمع المسلم كأروع مجتمع تحققت له أسباب السعادة والطمأنينة ، وانصهرت فيه مناشط الحياة كلها فى قالب العبادة لله سبحانه ، حتى بدت الحياة « فى إطار المسئولية والجزاء » ، محرابا واسعا يعبد الله فى كل أرجائه .

إن موقف القرآن والسنة من المسئولية والجزاء قد أبرز هذا النموذج الاجتماعى عمليا إلى حيز الوجود والواقع فى صورة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ الإنسانى كله .

واستطاعت السنة النبوية بهذا المنهاج تخريج جيل عظيم يدرك سر السعادة فى تحمله المسئولية عن قناعة واختيار ، فأضحى الكنز المخبوء المدخر عند هؤلاء هو العطاء والبذل والإنفاق ، وأصبحت التضحية والموت والاستشهاد هى عين الحياة .

إن الكشف عن موقف القرآن الكريم والسنة المطهرة من المسئولية والجزاء من زاوية التكوين والتنمية للفرد أو المجتمع الذى يرضى ويسعد بتحمله للمسئولية فى أدنى صورها ، كإماطة الأذى عن الطريق ، وفى أعلى صورها كبذل الدم والنفس

استشهادًا فى سبيل إعلاء كلمة الله التى تنفع الناس وتسعدهم [١] ـ وبين أدنى صور المسئولية وأعلاها مراتب شتى من المسئولية حددتها السنة المطهرة بحيث لم تترك فى هذا الأمر أى ليس أو غموض ـ إن هذا الكشف يعطينا تصور صحيحا يرغبنا فى تطبيقه ، ففى بذل النفس مثلا كان شعورهم الحقيقى الرغبة الشديدة فى الاستشهاد افتداءً عمليا برغبة النبى ﷺ التى عبر عنها بقوله : « **لوددت ان أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل** » [٢] .

والشهادة هى ذروة التضحية حفاظا على المجتمع ونمائه وازدهاره فى ظل المبادئ الإسلامية ، وبذل النفس طواعية يعنى من ناحية أخرى ارتقاء الأفراد إلى أعلى معدلات التنمية الاجتماعية تعاونا وإيثارا وتفانيا .

ويقتضى هذا النص الشريف الرغبة الشديدة فى أن تتاح الفرصة للمؤمن كى يتحمل المسئولية فى أرفع مستوياتها عدة مرات يجود خلالها بنفسه ودمه ، ولا شك أن هذه الرغبة القوية فى احتمال المسئولية إنما كانت على هذا النحو بسبب نجاح الإسلام فى إبراز جزائها العظيم وربطه بالمسئولية بمثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩] .

وبمثل قول النبى ﷺ الذى رواه الترمذى : « **إن أرواح الشهداء فى طير خضر تعلق من ثمر الجنة** » [٣] .

وفى رواية مسلم : « **أرواحهم فى أجواف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش**

---

(١) فى حديث البخارى « **ويميط الأذى عن الطريق صدقة** » ، وعن أبى سعيد الخدري ـ فيما رواه الترمذى ـ قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الناس أفضل ؟ قال : « **رجل يجاهد فى سبيل الله** » ، قالوا : ثم من ؟ قال : « **مؤمن فى شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره** » .

(٢) رواه البخارى فى باب تمنى الشهادة .

(٣) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل »[١] .

أما فى بذل المال فقد كان شعارهم قوله ﷺ : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله »[٢] .

ثلاث بشارات فى ثلاثة اتجاهات :

اتجاه اقتصادى : « ما نقص مال من صدقة » .

واتجاه اجتماعى : « وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا » .

واتجاه أخلاقى : « وما تواضع أحد لله إلا رفعه » .

وهى بشارات تستنهض فى المسلم ثلاث ملكات من ملكات المسئولية حتى تصل بها إلى درجة من الكفاءة العليا القادرة على رعاية أدق الخيوط الفاصلة بين مخاطر النقص فى المال مع استدامة النفقة . ومخاطر الضعف مع استمرار العفو ، ومخاطر الهوان مع الحفاظ على التواضع .

وقد بدأ بالحديث بالمسئولية الاقتصادية لأهمية تأثيرها فى غيرها . وجاء القرآن الكريم مصدقا للسنة فى هذه المسئوليات ، وركز تركيزا شديدا على الناحية الاقتصادية فى مثل قوله تعالى : ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن:١٧] .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩] .

وإذا ضربنا المثال بالنفس والمال وهما أحب الأشياء للإنسان فإن احتمال المجتمع المؤمن للمسئولية فيما دونهما أيسر وأهون ، ونظرة لبقية الحديث النبوى نجد فيها

---

(١) رواه الإمام مسلم .

(٢) رواه مسلم والترمذى .

جزاء العفو والتواضع يحكمه قانون التجانس .

فجزاء العفو والسماحة هو العز ، وجزاء التواضع هو الرفعة ، فانظر كيف تطمئن السنة والقرآن أبناء الإسلام وهما يتحملون مسئولياتهم دون وجل ، فلا خوف من الإفلاس عند النفقة ، ولا رهبة من الضعف والمذلة عند العفو والتواضع .

ولكن كيف يحقق المسلم هذه المعادلة الدقيقة والصعبة بحيث ينفق ولا يفلس بل يزيد ماله ، ويتواضع ولا يتضع بل يرتفع ، ويعفو فلا يضعف بل يعتز ؟ إن هذه البشارات الثلاث ، لا يمكن أن تتحقق للمسلم إلا بطاعة الله ورسوله عن طريق تحديد مسئولياته من القرآن والسنة ، ويشمل هذا التحديد للمسئولية مناهج الإسلام فى إدارة المال وتنمية المجتمع علميا وعقليا وخلقيا ، فما فرط الله فى كتابه من شيء ، ومن شروط طاعة القرآن والسنة الأدب الكامل فى احترام الأسباب التى خلقها الله لتصل بالناس إلى مسبباتها .

فلا بد أن يجيد المسلم ويتقن كل ما يحتاج إليه من جزيئات الحياة التى تجمعها كلمة « المسئولية » .

ولما كانت السنة هى المذكرة التفسيرية للقرآن الكريم ، والقرآن هو كتاب الله لخلقه ، مضى البحث فى تصوره لأطراف المسئولية ملتزما التزاما دقيقا بما ورد فيها من كتاب الله سبحانه ، وسنة رسول الله ﷺ .

وهذان موضوعان تحدثا عن المسئولية فى القرآن :

١ـ قوله تعالى : ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

[الأعراف:٢ـ٦]

٢ـ قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:٤٣، ٤٤] .

وقوله تعالى فى الآية الأولى : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ﴾ يفيد أن السائل هو المولى سبحانه : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣] .

ولما كانت المسئولية شاملة للناس كافة ، فقد أورد الإمام ابن كثير فى تفسيرها الحديث النبوى الذى رواه ابن عمر فقال :

قال رسول الله ﷺ : « **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام يسأل عن رعيته ، والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده** » ، ثم قرأ : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

« رواه ابن مردوية وهو مخرج فى الصحيحين دون زيادة قوله : ثم قرأ الآية »

أما المرسلون : فهم أنبياء الله وصفوته من خلقه .

وأما قوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ ، فسواء كان « الذكر » هو الشرف أو التذكير فالمعنيان متلازمان إذ لا تتأتى حيازة الشرف إلا عن طريق الالتزام بمقتضى ما ذكر به ، وهو هنا :

الاستمساك بالوحى الذى هو القرآن ومثله من البيان معه ، والثبات على صراط الله المستقيم ، وهى كلمات جامعة تشير إلى منهاج الوحى فى المسئولية بالإضافة إلى تطبيقه العملى . لكن الناس تركوا الوحى وراحوا يستقلون بعقولهم فى محاولة التعرف على الصواب فى القواعد الوضعية للسلوك الإنسانى وإنه لمن العجيب حقا أن تتقدم العلوم المادية تقدما رهيبا بينما تظل العلوم الوضعية فى هذا الصدد كعلوم الحق

والواجب والخير تحبو منذ عهد الإغريق ومن قبله ولما تبلغ بعد مرحلة الفطام [١] .

وأعجب من ذلك وأغرب ، إن سدنة الصهيونية والدهرية ومتعصبى الصليبية يبالغون فى الترويج لها ، وتوليدها ، واستحداث الأجنة الشائهة منها فى محاولة مستميتة لصرف نظر الناس بهذا الباطل عن جوهر الإسلام الحق ، وحجب نوره المبين .

ولكن ، هيهات ، فما كان لنا أن نختار أبدا غير منهاج القرآن وصراطه المستقيم ، وهذه المسئولية أكيدة فى أعناق المشغولين ببيان منهاج الإسلام ، ولهم فى ذلك شرف الاستمساك بما أُمروا أن يستمسكوا به .

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ .

ولذا سنبدأ بتحرير معنى كلمة المسئولية فى اللغة العربية الى هى لغة القرآن الكريم ، ثم نلتزم بتحديدها على ضوء القرآن والسنة طوال مسيرتنا فى البحث إن شاء الله .

*****

(١) لا زالت علوم الفلسفة والقوانين والأخلاق والاجتماع عاجزة أشد العجز كما سيأتى .

الفصل الثانى

تعريف المسئولية

تحرير المقصود اللغوى من كلمة المسئولية :

قال صاحب القاموس المحيط : سأله كذا ، وعن كذا ، وبكذا ، بمعنى : سؤالا ومسألة وتسآلا . ويقال سال يسال ، كخاف يخاف ، وهما يتساولان . واسأله سؤله ومسألته : قضى حاجته .

فكلمة المسئولية لها اشتقاقات واستعمالات كثيرة .

والذى يعنينا منها هو ما أخذ أصلا من مادة : (سأل يسأل سؤالا فهو سائل) .

فإذا ما بنى الفعل للمجهول قلنا : (سئل يسأل سؤالا فهو مسئول) . والنتيجة البديهية التى تؤخذ من هذه الاشتقاقات هى أن للمسئولية أطرافا ثلاثة :

الأول : السائل . **الثانى** : المسئول . **الثالث** : موضوع المسائلة .

وهذا المعنى اللغوى للكلمة يتفق تماما مع قوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف:٦] .

ويتفق تماما مع التفريعات النبوية لموضوع المسئولية التى وردت فى قول رسول الله ﷺ : « **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام يسأل عن رعيته ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده** »[1] .

وهذا المعنى هو المقصود لنا من كلمة « المسئولية » التى نعالجها فى هذا البحث .

وعليه يمكننا أن نشتق من نصوص القرآن والسنة تحديدا للمعنى يأخذ صورة التعريف .

---

(١) سبق تخريجه ، وهو فى الصحيحين .

تعريف المسئولية كما نستنبطه :

كون الناس جميعا مأمورين من قبل الله سبحانه بأن يرتضوا مجموعة القيم والمبادئ والتعاليم التى بلغها لهم خاتم النبيين منهاجا لحياتهم فيرضاها الصفوة من الخلق مختارين ويأباها غيرهم ، ويكون على أساسها الحساب والجزاء عدلا وفضلا .

ولنأخذ هذا التحديد فقرة فقرة .

فقولنا : « كون الناس جميعا » يتضمن المسئولين .

وقولنا : « مأمورين » يتضمن التكليف والالتزام .

وقولنا : « من قبل الله سبحانه » يشير إلى السائل .

وقولنا : « بأن يرتضوا » يشمل القبول والرضا من جانب العباد ، وسندرك عند التفصيل فى موضوعات الكتاب أن « التكليف من جانب الله سبحانه والرضا من جانب الخلق » يدفعان معا الشبهة الى وقع فيها كثير من المفكرين حين ظنوا أن التزام المسلم يعوزه جانب الاختيار ، زاعمين أن تعاليم الإسلام ومبادئه تقوم على الجهر والإكراه بالتكليف المفروض من الخارج .

وقولنا : « مجموعة القيم والمبادئ والتعاليم » يتضمن القرآن والسنة كمنهاج .

وقولنا : « التى بلغها لهم خاتم النبين » يشير إلى الإعلام والتبليغ .

وقولنا : « فيرضاها الصفوة من الخلق ويأباها غيرهم » يتضمن طرفى الاختيار .

وقولنا : « ويكون على أساسها الجزاء والحساب .... إلخ » يشمل أهم مقتضيات المسئولية . ونعنى به ما يترتب على الاختيار الإنسانى من خير أو شر من جنس ما قدم بالفضل فى الثواب ، والعدل فى العقاب .

والذى دعانا لتحرير مقصودنا من كلمة « المسئولية » على هذا الوجه ، هو ما يرد على الكلمة من احتمالات جزئية تتحملها الكلمة باعتبار أن هذه المعانى من لوازم المسئولية ومقتضياتها .

فمثلا يقولون : فلان يتصرف بمسئولية ، أو لا يأتى إلا الأعمال المسئولة ، أو كلماته مسئولة ، وهم يقصدون من وراء هذا الوصف أن الرجل الموصوف يتمتع بحاسة المسئولية وملكتها ، فهو لا يلقى الكلام على عواهنه دون حساب ، ولا يأتى سلوكا غير متفق مع المسئولية التى يرعاها .

وقد يطلق الناس على رؤسائهم وحكامهم ومساعديهم كلمة « المسئولين » وهو إطلاق صائب ، ومنه الحديث النبوى الذى أوردناه : « **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ...** » .

غير أن الناس يستعملون الكلمة فى هذا الموطن مرادفة لكلمة الرئيس او الحاكم بغض النظر عمن يسأل هؤلاء : الله ، أم الشعب ، أم القانون ؟

وقد نطلق الكلمة فى موقف تهديدى ، ويقصد من إطلاقها « الجزاء المحض » كأن يقول شخص تعرض لعدوان من شخص آخر :

أنت المسئول عن كل ما قلت ، ولا يخفى أن الجزاء من لوازم المسئولية .

والأصل فى هذه المعانى اللازمة وأمثالها يبدأ من القمة فى أطراف المسئولية الثلاثة ، ونعنى بها السلطة التى تملك توجيه السؤال ، وتملك تقييم الجواب ، وتملك فى نفس الوقت منح الثواب أو إنزال العقاب وفق تقويمها وقدرتها ، وذكر القدرة هنا للتفاوت الكثير بين هذه القدرات ، فليست قدرة الله من جنس قدرة عباده ، وليست قدرة العباد فى درجة واحدة .

فالمسئولية إذن مأخوذة من السؤال ، ولكن ليس كل سؤال مساءلة ، فهناك سؤال الاستفهام لمعرفة علم أو خبر ، وسؤال الند للند : الذى وصفوه بالالتماس .

بل هناك سؤال الأدنى للأعلى الذى يصفه علماء اللغة وآدابها بالدعاء أو التمنى أو الترجى ونحو ذلك .

والخلاصة أن أصل المسألة هو السؤال الذى تترتب عليه مساءلة وحساب ، ومنه

وحده كانت المسئولية بأطرافها الثلاثة : « سائل ، ومسئول ، وموضوع يكون على أساسه الحساب » .

وإذا كنا قد عرضنا التحديد الذى اخترناه للمسئولية فإنه لمن الضرورى أن نختار بعناية بعض التحديدات التى قدمها للمسئولية علماء ثقات تخصصوا فى علوم القيم والوضعية كعلوم الفلسفة والاجتماع والقانون ولكنهم احتفظوا بولائهم للإسلام .

ورعاية للإيجاز غير المخل سنكتفى بثلاثة نماذج :

النموذج الأول :

وجهة نظر متخصصة فى فلسفة الأخلاق ، ذكر صاحبها [1] تصوره عن المسئولية فقال : إذا عمدنا إلى الجانب الاشتقاقى وجدنا أن عبارة « كونه مسئولا » تعنى : كون الفرد مكلفا بأن يقوم ببعض الأشياء وبأن يقدم عنها حسابا إلى زيد من الناس ، ولا ريب أننا نتكلم عن المسئولية بالمعنى الحقيقى الذى قد يتفاوت فى قوته ، وقد يحدث أن يستخدم هذا الاصطلاح بتوسيع دلالتها أو إضعافها ليدل على مجرد تبنى العمل ولو لم يوجد إلزام ولا إمكانة سؤال أو إجابة .

ثم قال : ينتج عن التحديد الاشتقاقى الذى رأيناه أن هذه الفكرة تشتمل على علاقة مزدوجة من ناحية الفرد المسئول : علاقته بأعمال ، وعلاقته بمن يحكمون على هذه الأعمال .

فأما من ناحية العمل فإن مصطلح المسئولية بعكس ما كان يُعْتقد ، لا يدل ابتداء على علاقة واقع ، بل على علاقة حق يقره ، ويجب أن يسبقه فى أحكامنا الخاصة .

والمسئولية قبل كل شيء استعداد فطرى ، إنها هذه المقدرة على أن يلزم المرء نفسه أولا ، والقدرة على أن يعنى بعد ذلك بالتزامه بواسطته الخاصة .

---

(١) للدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه : دستور الأخلاق فى القرآن .

فإذا أخذت المسئولية بهذا المعنى الرحب والأولى ـ فلن تكون سوى سمة من السمات المميزة التى يأخذها الإنسان من جوهر ذاته .

وبراعة وجهة النظر [١] هذه تبدو لنا حين يؤكد صاحبها أن المسئولية الدينية والأخلاقية والاجتماعية تتداخل وتتحد حين يستأنف قائلا : « هنا نجد ثلاثة أنواع من المسئولية : المسئولية الدينية ، والمسئولية الاجتماعية والمسئولية الأخلاقية المحضة » ، وإن القرآن الكريم ليذكر هذه الثلاثة مجتمعة فى هذا النظام فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

[الأنفال:٢٧]

ونستطيع أن نقول بمعنى معين : إن كل مسئولية هى مسئولية أخلاقية متى ارتضيناها ، فالمسئولية التى يُحملنا إياها غيرنا تصبح بمجرد قبولنا لها مطلبا صادرا عن شخصنا .

وإذن فليس من المستغرب أن نرى القرآن يقدم لنا المسئولية الدينية ذاتها فى صورة مسئولية أخلاقية محضة حين يقول بمناسبة بعض التعاليم المتعلقة بالصوم المفروض : ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة:١٨٧] .

وفى كثير من الأحيان لا يكتفى الكتاب ، حين يستحث المؤمنين على الطاعة بأن يذكرهم بالأمر الإلهى بل يذكرهم فى الوقت نفسه بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم بأن يطيعوا هذا الأمر : ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ ﴾ [الحديد:٨] ، ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ .

[المائدة:٧]

فعلى حين نستطيع أن نتصور بالنسبة إلى غير المؤمن مسئولية تفرض عليه من

---

(١) رغم وصفنا عرض وجهة النظر هذه بالبراعة ، إلا أنه من اليسير أن نلاحظ سياق مقدمات اصطلاحية حديثة قد لا يقرها الإسلام ، ثم الخروج منها بنتائج تبدو فى ظاهرها مقبولة ولكن تأملها لا يلبث أن يكشف ما فيها من تلفيق وقع بحسن نية ، وسنوضح ذلك بعد قليل .

خارج ذاته دون أن تكون لديه مسئولية أخرى صادرة عن ضميره الخاص نجد المؤمن ـ على العكس ـ لا يمكن أن توجد إحدى المسئوليتين لديه دون الأخرى ، لأن العمل الأول للإيمان يستلزم معرفة الله ، الجدير بالطاعة والذى هو فى نفس الوقت محبوب ومعبود .

ولكن فى اتجاه آخر يمكن القول بأنه فى سبيل تحقيق أخلاق كأخلاق القرآن يجب أن تنتهى كل مسئولية إلى نوع من المسئولية الدينية أو على الأقل تتبعها [1] .

ومع تسليمنا بأن النتيجة التى انتهى إليها فضيلة المؤلف نتيجة جد حسنة إلا أن البداية التى بدأها كانت متأثرة إلى حد كبير بالأطر الأكاديمية للأخلاق الفلسفية ، وقد ظل يغلب عليه هذا الاتجاه غلبة بينة حتى إنه ليكاد يصور لنا ببعض عباراته وكأن المسئولية الأخلاقية والاجتماعية التى اصطلح عليهما علماء الفلسفة والأخلاق والاجتماع كانتا من مقاصد القرآن حين نزل به الوحى ، وظل يُصَعِّد النصوص القرآنية فى هذا السياق تصعيدا ملحوظا لا تخطئه مراجعة النص الذى بين أيدينا من استشهادات المؤلف بالقرآن الكريم لتقرير أن كل مسئولية هى مسئولية أخلاقية متى ارتضيناها ، ولا يخفى أن هذا المعنى من مصطلحات الأخلاقيين بالمعنى العلمى الفلسفى .

فأية مسئولية أخلاقية هذه تلك التى أجمع عليها علماء الأخلاق ؟ ، وهل استطاع هؤلاء العلماء توحيد آرائهم ومقاييسهم الأخلاقية ولو فى مجرد الأصول والمبادئ .

إن كلمة « الأخلاق » لها مكانتها العظيمة فى الإسلام ، ولكن تحديد المسئولية الأخلاقية بهذا المعنى الذى يشترط عدم فرض واجب من خارج الذات كى يصبح هذا الواجب من واجبات الأخلاق ،هل هذا التحديد يقره الإسلام ؟

حقا إن الإسلام ينشد من المسلم أن يكون هواه تبعا لما جاء به ، بمعنى أن يكون راضيا غير مكره وهو يطيع الله ، ولكن لا بد من رعاية النية للواجب المفروض من

---

(١) دستور الأخلاق فى القرآن لفضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز ﷺ ، (ص ١٣٦) ، وما بعدها .

قبل الله ، حتى يكون الخير طاعة يثاب عليها المسلم .

وسر الإعجاز فى الإسلام أنه يجمع بين هذين الأمرين دون أدنى صدمة تحس بها الإرادة الحرة فى الإنسان ، ونعنى بهذين الأمرين :

« التكليف من الخارج » مع « الرغبة والحب والرضا بهذا التكليف » .

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:٧] .

وعن أنس بن مالك ﷺ عن النبى ﷺ قال : « **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار** » (١) .

وهذا لا يقتضى من قريب أو بعيد إنكار الواجب المفروض من خارج الذات ، بل هو على العكس من ذلك تماما يقتضى العبودية لمن يملك وحده التشريع والإيجاب .

لأن أى إنسان كائنا من كان عاجز وحده « دون وحى » عن تشريع واجب ما ، لنفسه أو لغيره .

تلكم هى حقيقة المسألة فى الإسلام ، ومع ذلك فإن عظمة هذا الدين تقتضى بالفطرة أن ذروة سعادة المسلم لا يجدها إلا فى خضوعه للواجب الذى أمره به ربه ومولاه .

وحتى نكون أكثر وضوحا فإننا نؤكد أن المبالغة فى التوفيق بين النظريات الأخلاقية الوضعية وبين آيات القرآن الكريم هى نفس المبالغة فى التوفيق بين مبادئ الإسلام فى المساواة والعدالة الاجتماعية وبين مصطلحات الاشتراكية العلمية فى النظريات الاقتصادية ، وهو أسلوب مردود فى الدعوة إلى الإسلام .

على أن هذه الملاحظة لا تصدنا عن إنصاف المؤلف الذى كان قصده : كما قال : « أن يرى علماء الغرب الوجه الحقيقى للأخلاق القرآنية » ؛ لأن ذلك فى الواقع هو

---

(١) البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجة وأحمد فى مسنده .

الهدف الأساسى للمؤلف [١] .

ولا شك أن علماء الغرب إذا خوطبوا بالمنهاج الأخلاقى بنفس النمط الذى تعودوه والأسلوب المتبع لديهم فلسوف يكون ذلك أدعى إلى إعجابهم بالقرآن .

وإنه لمن دواعى الغبطة أن النتيجة النهائية التى انتهى إليها فضيلة المؤلف باستثناء النتائج الأولية ـ كانت موفقة كما وصفناها آنفا بأنها جد حسنة ، وإنها لوجهة تتسم بالبراعة فى العرض والوعى فى الاستيعاب ، ولعل وزن المؤلف ـ عليه رحمة الله ـ فى العقيدة والعلم والعمل والأخلاق جعله يجتاز هذه الصعاب بنجاح رغم خطورة المنهاج الذى سلكه ، وليس كل مؤلف يملك من المواهب ما اختص الله به هذا العالم العبقرى التقى ، ومن هنا كان تنبيهنا على الملاحظة المذكورة حتى لا نتورط فى مبالغاتها ، فنحن فى عصر تجلت فيه للناس معجزات القرآن فى جوانب العلوم العملية والإنسانية ، ومع هذا الانبهار توسع بعض المفكرين فى استخدام النصوص القرآنية يسوغون بها الوجهة التى يريدون .

النموذج الثانى :

وقد اخترنا النموذج الثانى من كتاب تخصص فى دراسة المسئولية من وجهة النظر الاجتماعية ، ذلكم هو كتاب « المسئولية » للدكتور على عبد الواحد وافى ، وهذا هو تصوره عن المسئولية مع اختصار عباراته وتلخيصها :

« تبدو ظواهر المسئولية والجزاء فى صور كثيرة ، فمن هذه الظواهر قسم يتصل بالقوانين الوضعية للأمة ، ومنها قسم يتصل بالنظم الدينية للأمة ، ومنها قسم ثالث يتصل بالنظم الأخلاقية » .

وهذه الأقسام الثلاث ، تتفق جميعا فى الجوهر وترد إلى أمر واحد ، فكل منها ينبعث عن العقل الجمعى وينحدر من مجموعة النظم التى تتخذها الجماعة دعامة لحياتها الدينية والقانونية والأخلاقية .

---

(١) مقدمة الكتاب المذكور (ص١) .

ثم خرج المؤلف بتعريف المسئولية على الوجه التالى : « فالمسئولية إذن ظاهرة اجتماعية أيا كانت الصورة التى تبدو فيها ، ويبدو فيها ما تؤدى إليه من جزاء بوصفها هذا تؤلف موضوعا من موضوعات علم الاجتماع » .

ثم قال : « ولذلك لم تكن هناك فواصل جوهرية بين هذه الأقسام ، فقوانين المجتمع الوضعية ونظمه الدينية تترجم فى جملتها عن عرفه الخلقى ، ويتردد فيها ما يراه هذا العرف بصدد الفضيلة والرذيلة ، وعرفه الخلقى تتألف عناصره من معتقداته الدينية وما يضعه من نظم لمختلف فروع الحياة ، ومن ثم نرى أن العمل الواحد كثيرا ما يؤدى إلى مسئوليات وجزاءات من مختلف هذه الأنواع »[1] .

ونلاحظ أن المؤلف قد انتهى إلى رأى قريب من رأى صاحب كتاب الدستور الأخلاقى فى القرآن ، مع رعاية الفارق بين الرأيين من حيث التفاوت بين علم الأخلاق وعلم الاجتماع .

بيد أن ما ورد فى عباراته عن : الاتفاق بين القوانين الوضعية والنظم الدينية والأخلاقية فى الجوهر :

أولا : وانبعاثها عن العقل الجمعى .

ثانيا : وعدم وجود فواصل جوهرية بين هذه الأقسام .

ثالثا : أمور لا تقوى على الصمود أمام المناقشة ، فضلا عما يحس به القارئ لهذا الكتاب من وضع المجتمع وأعرافه وتقاليده وكأنها هى الأصل لكل هذه النظم ، وإذا صح هذا الاتجاه بالنسبة للقوانين والأخلاق الوضعية فإنه لا يصح مطلقا بالنسبة للدين ، ذلك أن الدين يهيمن « توجيها وإصلاحا » على القوانين والأخلاق وسائر الأعراف التى تنبثق من أى مجتمع ؛ لأنه من عند الله .

النموذج الثالث :

هذا النموذج يعرض تصورا قانونيا للمسئولية وقد اخترنا واحدا من أبرز

---

(١) كتاب : المسئولية والجزاء للدكتور على عبد الواحد ص٣ ـ ٤ .

الفقهاء القانونيين الإسلاميين الذين خدموا التشريع الإسلامى ، ذلكم هو صاحب كتاب « التشريع الجنائى الإسلامى مقارنا بالقانون الوضعى » الأستاذ عبد القادر عودة رحمه الله رحمة واسعة .

قال فى كتابه المذكور ما نلخصه فيما يلى : « تعتبر الشريعة الأخلاق الفاضلة أولى الدعائم التى يقوم عليها المجتمع ولهذا فهى تحرص على حماية الأخلاق وتتشدد فى هذه الحماية ، أما القوانين الوضعية فتكاد تهمل المسائل الأخلاقية إهمالا تاما . والعلة فى اهتمام الشريعة بالأخلاق على هذا الوجه أن الشريعة تقوم على الدين وأن الدين يأمر بمحاسن الأخلاق ، بينما تقوم القوانين الوضعية على أساس الواقع وما تعارف الناس عليه من عادات وتقاليد .

ومعنى المسئولية القانونية فى الشريعة الإسلامية أن يتحمل الإنسان نتائج الأفعال المحرمة التى يأتيها مختارا وهو مدرك لمعانيها .

فالمسئولية الجنائية فى الشريعة تقوم على ثلاثة أسس :

أولها : أن يأتى الإنسان فعلا محرما .

ثانيها : أن يكون الفاعل مختارا .

ثالثها : أن يكون الفاعل مدركا .

هذا ولم يفرق الفقهاء الإسلاميون بين الجريمة الجنائية والجريمة التأديبية أو الأخطاء الإدارية كما يفرق بينها شراح القوانين الوضعية اليوم ، والعلة فى ذلك ترجع إلى طبيعة العقوبات فى الشريعة الإسلامية من ناحية ، وإلى تحقيق العدالة من ناحية أخرى ، فالجرائم فى الشريعة إما أن تكون جرائم حدود أو جرائم قصاص ، أو جرائم تعازير .

والخطأ الإدارى إذا لم يكن من جرائم الحدود أو القصاص فهو من جرائم التعازير ، وهذا يدعو لعدم معاقبة المخطئ مرتين على فعل واحد ــ أى أن الشريعة

تمتاز من حيث طبيعتها بوضوح تصنيف المسئوليات من جهة ، ورعايتها للعدالة من جهة أخرى ، ولا حاجة بالشريعة إذن إلى التقسيم الوضعى فى أنواع الجريمة .

بينما فى القوانين الوضعية قد يعاقب المخطئ مرتين على فعل واحد ولا تحول براءته فى إحدى المحاكمتين دون السير فى الأخرى معللين ذلك بأن الدعوى التأديبية يقصد منها حماية المهنة أو الوظيفة والدعوى الجنائية يقصد منها حماية المجتمع .

ولا شك أن نظرية الشريعة أكثر تمشيا مع المنطق وانطباقا على القواعد التشريعية الحديثة التى تمنع من محاكمة الشخص مرتين على فعل واحد ، كما أنها تؤدى إلى اختصار الإجراءات وتقليل المحاكمات ولا تحول دون توقيع العقوبة الملائمة لشخصية المتهم وجريمته المنسوبة إليه .

أما المسئولية المدنية فى الشريعة الإسلامية فأصلها أن الأموال والنفوس معصومة ، وكل فعل ضارٍّ بالإنسان أو بماله مضمون على فاعله إذا لم يكن له حق فيه ، والضمان إما عقوبة جنائية إذا كان الفعل الضار معاقبا عليه ، وإما تعويض مالى إذا لم يكن الفعل الضار معاقبا عليه ، وأما عقوبة جنائية وتعويض مالى معا كاستهلاك صيد مملوك فى الحرم ، وشرب الخمر الذمى فإن الفاعل فى هاتين الحالتين يعاقب على الصيد والشرب وعليه قيمة الصيد والخمر لصاحبها [1] .

ومن الإنصاف الواجب أن نقول : إنه رغم التحديد الذى يجب أن تتسم به القوالب القانونية كى تتساوى ألفاظها ومعانيها ، فقد كان النموذج القانونى أصيلا فى صيغته الإسلامية بحيث بدا واضحا أن الإسلام هو الأساس والأصل الذى ينطلق منه المؤلف فى ثقة واعتزاز . فهو لا يظهر محاسن الإسلام بقواعد القانون وإنما يكشف بكمال الإسلام قصور القوانين الوضعية ، وشتان ما بين المسلكين .

وعلى أية حال هذه نماذج ثلاثة لتحليل معنى المسئولية حرصنا على انتقائها من

---

(١) التشريع الجنائى الإسلامى لعبد القادر عودة ـ من ص ٧٣ ، ٧٦ ، ٣٩٢ ج ١) .

تخصصات ثلاث مختلفات هى : الأخلاق ، والاجتماع ، والقانون .

فقد كتبها ثلاثة من العلماء الأفذاذ ، وأعطوها كل عنايتهم واهتمامهم ، إما بسبب الإيمان ويقين العقيدة ، وإما للحصول على مؤهلات علمية رفيعة ، وإما بالسببين معا ، وهى أسباب تدفع للإجادة والإتقان ، ولقد دعانا إلى هذا السلوك الرغبة الشديدة فى تحديد مقصودنا نحن من معنى المسئولية التى اخترناها موضوعا لهذا البحث ، ولا يتأتى هذا التحديد على وجه قوى إلا بمقارنة للمفاهيم المختلفة لهذه الكلمة فى مصطلحات العلوم التى تعنى بها مع المفهوم الذى رأيناه أنسب المفاهيم لما نحن بصدده من دراسة ذات صلة مباشرة بالإسلام الحنيف .

وحين نقارن التعريف الذى آثرناه للمسئولية والمؤلَّف من هذه الفقرات :

١ - كون الناس جميعا مأمورين من قبل الله سبحانه بأن يرتضوا .

٢ - مجموعة القيم والمبادئ والتعاليم التى بلَّغها لهم خاتم النبيين منهاجا لحياتهم .

٣ - فيرضاها الصفوة من خلقه مختارين ويأباها غيرهم .

٤ - ويكون على أساسها الحساب والجزاء ..... إلخ .

إننا حين نقارن هذا التعريف بغيره ، فسوف نلاحظ أن هذا التحديد يتميز بشموله للعناصر المناسبة لموضوع البحث بشكل مباشر وبسيط ، بينما يتسع لكل ما فى التعاريف الأخرى من أصالة موضوعية ، ويتجنب فى نفس الوقت ما لا يرضيه منها دون أن يكون أسيرا لأى اتجاه غريب عن روح الإسلام .

إن اختيارنا لهذه النماذج الثلاثة التى سلف ذكرها كان بهدف الكشف عن خطورة المسلك الذى يحاول التوفيق بين الإسلام والمذاهب الوضعية مهما كانت حيطة الموالين للإسلام فى هذا المسلك ، ومن هنا فقد تعمدنا أن يكون النموذج الثالث متحررا تحررا كاملا من هذا المسلك الشائك .

على أن اختيارنا لهذه النماذج لا يكفى لبيان الفساد الكامل فى الاتجاهات الفكرية التى نأت وابتعدت عن الوحى فضلَّت وأضلَّت ضلالا بعيدا .

الفصل الثالث
عقم العقل وانحرافه
بانفصاله عن توجيه الوحى

لو أن الإنسان خلق نفسه لكان حريا بالاستقلال فى رسم منهاج حياته بعقله دون وحى ، فهل يستطيع الإنسان خلق أى شيء ؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣] .

إذن لم يخلق الإنسان نفسه ، ولا خلق عقله ، ولا عقله خلقه ، وخالق الإنسان وعقله هو الله سبحانه ، وقد بين الله مهمة العقل ووظيفته ، بل وبين للإنسان أى مجالات الوجود يصلح فيها عمل العقل الإنسانى .

والأمور التى يلزم الإنسان أن يعرفها ولا يستطيع العقل إدراكها تكفَّل الوحى ببيانها ووضَّح للإنسان عدم جدوى عمل العقل فيها . وقضايا المسئولية والواجب من قضايا التشريع ، ومن هنا تولى القرآن والسنة توضيحها .

لكن الإنسان حاول أن يقحم نفسه فى بحثها وبحث ما يتعلق بها من جهة الإنسان وإرادته وحريته واختياره فانحرفت به السبل أيما انحراف ، وتورط فى متاهات مضت فيها الأفكار بين الحتمية واللاحتمية بزوايا متعددة ومختلفة إلى أبعد الحدود ، فمنها الزوايا الحادة والمنفرجة ، والمتعارضة والمتشابكة التى تقترب أو تبتعد فيما بين النقيضين : الجبر والاختيار .

آراء فلاسفة منفصلين عن الدين [1] يشهدون بفساد الفلسفة ، وإذا استعرضنا

---

(١) المقصود بانفصالهم عن الدين بأنهم يدرسون الفلسفة ولا ينظرون إليها من خلال الدين .

بعض النماذج لهذه المنحنيات الفكرية ، الطائش منها أو الذى يحاول الاعتدال ، أمكننا أن نلمس ما بينها من تضارب وتناقض واضطراب .

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوى فى تلخيصه لمراحل الفكر اليونانى الثلاث الأولى التى بدأت قبل الميلاد بستة قرون معتمدا على تقسيم « اتسلر » للفلسفة اليونانية القديمة إلى عصور :

ونستطيع أن نلخص هذا كله بعبارة أوجز فنقول : إن الذات كانت هى والموضوع فى الدور الأول مختلطين لا تفرقة بين الواحد والآخر ، وفى الدور الثانى تحللت الذات من الموضوع ببعض الشيء ، وانتهت إلى أن الوجود الحقيقى هو وجود أعلى من الذات ومن الموضوع معا ، وجاء الدور الثالث ففرق أكثر وأكثر بين الموضوع وبين الذات حتى جعل الذات مستقلة استقلالا تاما ، مكتفية بنفسها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، اضطرت هذه الفلسفة إلى وضع افتراضين ، فهناك الذات منحصرة فى نفسها ، وهناك المبدأ العالى البعيد كل البعد عن الذات فنشأ عن هذا تناقض ؛ لأن الذات لا تستطيع أن تتصل بهذا المبدأ العالى ، وفى هذا التناقض وقعت الفلسفة اليونانية فكان به فناؤها [١] .

ولقد نفى بعض المؤرخين أية حقيقة فلسفية وحطوا من شأنها ، وقالوا : « إنه ليس ثمة حقيقة فى ذاتها ، وأن المذاهب متعارضة متناقضة ، وعلى هذا لا يمكن أن نقول إن هناك فلسفة » .

يقول د . عبد الرحمن بدوى : « وهؤلاء هم الشكاك الذين اتخذوا من تضارب المذاهب الفلسفية وتناقض الواحد مع الآخر وسيلة للحط من الفلسفة وإنكار المعرفة إنكارا تاما أو شبه تام [٢] .

---

(١) ربيع الفكر اليونانى ص ٦٨ .

(٢) ربيع الفكر اليونانى ص ٣ ـ ٤ .

وقد نادى ديكارت بأنه : « إذا كان لا بد من قيام فلسفة فلن يكون ذلك إلا بأن نضرب بكل الماضى عرض الحائط ، وأن نصرف النظر نهائيا عن كل ما قاله الأقدمون ـ أو على حد تعبيره ـ أن نتحلل من كل الأفكار التى ورثناها ، وأن نبدأ من جديد بإقامة مذهب فلسفى .

وهذا « امرسون » ينادى بنفس الرأى فيقول على لسان الطبيعة : أيها الإنسان ، إن العالم أمامك جديد ، وهو جديد فى كل لحظة ، فلا تتعلق بشيء مما عرفته فى الماضى ، بل عليك أن تبدأ كل شيء من جديد .

وإذا كان هذا هو رأى « ديكارت » و« امرسون » ومن ينحو نحوهما ، فإن ذلك يعنى أن تتكرر هذه المهزلة التى لا جدوى منها حين يأتى مفكرون آخرون ليحكموا على أفكار ديكارت بنفس الحكم الذى حكم به على أسلافه ، وهكذا دواليك .

وما من شك أن هذه الأحكام لها ما يسوغها ، فإن انطلاق العقل بلا ضابط لا بد أن يصل بنا إلى غرائب وعجائب تتناقض مع بعضها البعض ، وتتناقض مع الحق والخير الذى هو المقصود الأساسى من التفكير ، وهذا نموذج من المذاهب الفكرية التى ارتضتها بعض العقول ، ونقصد به المذهب النفعى ، وقد أجمله وأوجزه الدكتور توفيق الطويل فى كتابه الفلسفة الخلقية فقال :

يلتقى النفعيون عند القول بأن اللذة « أو المنفعة » هى وحدها الخير الأقصى أى المرغوب فيه لذاته دون نتائجه ، والألم وحده هو الشر الأقصى وينشأ عن هذا أن الأفعال الإنسانية لا تكون خيرا إلا متى حققت نفعا ، أو توقع صاحبها من ورائها نفعا ، فإن أدت إلى ضرر أو عاقت نفعا كانت شرا .

بهذا توقفت الأخلاقية على نتائج الأفعال وآثارها ، وأصبحت المنفعة هى مقياس الخيرية ومعيار التقييم .

ومن أصحاب هذا الاتجاه من تطلّع إلى تحقيق اللذة أو المنفعة الفردية حسية عاجلة ــ فيما ذهب إليه القورينائيون ــ أو حسية وعقلية وروحية ــ فيما أراد الأبيقوريون ـ وهى فى كل الحالات منفعة شخصية فردية فيما بدا من مذهب هوبز . أولئك جميعا هم أصحاب مذهب اللذة الفردى أو الأنانى .

وبغض النظر عن المحاولة التى بذلت لتطوير هذا المذهب من المنفعة الخاصة إلى المنفعة العامة التماسا لمصلحة المجموع على يد فرنسيس بيكون سنة ١٦٢٦م فإننا نسأل : ما وزن هذا الكلام فى عالم الأخلاق والمبادئ الذى يقوم حتما على أساس من التضحية والإيثار وإسعاد الآخرين ؟

فإذا نحن تركنا المدارس الفلسفية التقليدية وتوجهنا لنرى أحدث صيحة فى عالم الفلسفة التى يطلق عليها : « الوجودية » ثم استعرضنا نموذجا سريعا لرأى أهل الفن والتخصص فيها لوجدنا أن أمر الفلسفة لا يزال كما هو . وأنها لم تصل بعد فى طفولتها مرحلة الفطام ولو جاوز عمرها ستة وعشرين قرنا من الزمان .

كتب الدكتور محمد غلاب عن هذه الفلسفة الوجودية ، فبين أن لها شعبا وأجنحة يعارض بعضها بعضا ، وذكر الأشياء بأسمائها ، وعين أشخاص مفكريها من الروس والألمان والفرنسيين ، المسيحيين منهم والملحدين ، وتعرض إلى أشهر كتابها فى هذا العصر ، وذكر منهما اثنين ـ هما للأسف من الشعبة الوجودية الملحدة : أحدهما ، « هيدجير » وثانيهما « جان بول سارتر » ثم أورد تقييما لهذين الكاتبين على لسان المفكر : « بول فوكونيه » الذى قال :

« إن هذين الكاتبين يتجاوزان فى الصعوبة مؤلفات المدرسيين المتهافتة ؛ ولذا لا يكاد القارئ يتصفحهما حتى يصطدم بامتعاض ، وإننا لمقتنعون بأن أصابع اليد الواحدة كافية لعد الذين كان لديهم الصبر على مطالعة كتاب : « الوجود والعدم » سطرا سطرا ، وأقل من ذلك عدد الذين يجزمون فى صراحة بأنهم كانوا يفهمون

دائما ، بل إن المختصين أنفسهم يعترفون بأنهم ليسوا مستيقنين بأنهم فهموه [١] .

أية خسارة جناها الإنسان على نفسه حين أطلق لفكره العنان بلا ضوابط أو حدود تحت عنوان الرغبة فى الوصول إلى الصواب باسم الفلسفة وحرية البحث .

إن هذا الاضطراب البشرى فى تحديد الواجب أمر طبيعى ؛ لأن التكليف وهو العمود الفقرى للمسئولية ليس من وظائف الإنسان ، بل الموجب هو الله سبحانه فلا بد من الاسترشاد بوحيه فى تصور مسئوليات الحياة وعناصرها .

لقد كان مقصودنا ونحن نظهر هذا الاضطراب أن نفضح زيف هذه القوالب التى صُبَّتْ للفكر الإنسانى كي يصوغ نفسه فى إطارها مهما كانت فجة أو غامضة أو منحرفة أو عقيمة سواء فى ذلك الفلسفة والأخلاق والاقتصاد والاجتماع ، وظلت مفروضة على مناهج البحث فى إلحاح مستمر دؤوب حتى اضطر المفكرون الإسلاميون أنفسهم ـ بما فيهم كثير من المجيدين ـ إلى السير بنصوص القرآن والسنة على آثار ما اختطه الفلاسفة والأخلاقيون الطبيعيون من طرائق ، ولا يخطر بالبال أننا نقصد بذلك أن المتخصصين فى مجال الفلسفة من المسلمين ـ خاصة علماء الدين منهم ـ قد روَّجوا بالقرآن والسنة لهذه الاتجاهات الفلسفية ولا حتى وقفوا منها موقف الحيدة ، بل كثيراً ما قاموا بواجبهم فى الرد على النظريات الخاصة منها .

وإنما الذى نقصده ونعنيه أن القوالب الفكرية التى صبت فيها العلوم الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية بخيرها وشرها أصبحت وثنا يدور الناس من حوله فما وجدنا منها من خير يتوافق مع الوحى سارعنا فى قياس نصوص القرآن والسنة عليها فخورين مسرورين ، وكأنها هى الأصل والوحى هو الفرع .

والصحيح الأولى بأن يُتبع ـ هو عرض حقائق الوحى فى استقلال أصيل

---

(١) الوجودية المؤمنة ، والوجودية الملحدة للدكتور غلاب ، ص ١٣ ـ ١٤ .

متكامل ، فإذا أردنا المقارنة عرضنا ما فى الأفكار الإنسانية على الوحى وقسناها به ، فما كان منها صوابا أقررناه على أساس أنه خضع لتعاليم الله سبحانه باعتبار أن هذه التعاليم المقدسة هى الأصل والحق والصواب .

هذا السلوك ضرورى فى حد ذاته لأنه نشر وبلاغ لدين الله ، وهو ضرورة أيضا فى مواجهة هذه الهجمة الفكرية المبطلة وتعمدها طمس معالم الحق وإخفاءها : « يريدون أن يطفئوا نور الله » .

وقد تنبه لهذه الهجمة علماء الإسلام المعروفون بالأمانة العلمية والنزاهة والتجرد ، وها هو الدكتور محمد عبدالله دراز عليه رحمة الله يقول فى الأسطر العشرة الأولى من مقدمة كتابه « دستور الأخلاق فى القرآن » : إن نظرة سريعة نلقيها على مؤلفات علم الأخلاق العام ـ التى كتبها علماء غربيون ـ كافية لنلحظ فيها فراغا هائلا وعميقا نشأ من صمتهم المطلق عن علم الأخلاق القرآنى ، والواقع أن هذه المؤلفات تذكر لنا باختصار أو بإفاضة المبادئ الأخلاقية كما ارتأتها الوثنية الأغريقية ، ثم أديان اليهودية والمسيحية ، ولكنها حين تنتهى من عرض هذه المراحل الثلاث نجدها تنقلنا بغتة إلى العصور الحديثة فى أوروبا ، مغفلة كل ما يمس الدستور الأخلاقى فى الإسلام [1] .

هذا كلام يشتمل على رأى عالم ثقة متخصص فى محاولة الغرب إخفاء الحقائق الإسلامية الناصعة ، ولا شك أن لهذا الرأى ما يسوغه ، فعلى سبيل المثال :

كتب « بول فوكونيه » دراسة عن المسئولية ذات أبعاد اجتماعية تاريخية وجغرافية فسيحة ، تحتم على دارسها الإفادة علميا بمبادئ الإسلام ـ ولكن بول فوكونيه أغفل الجانب الإسلامى إغفالا يثير التساؤل ، وقد سجل الدكتور دراز ملاحظاته على ذلك فقال : والحق أننا مندهشون مما حدث من أن المؤلف على طول مسيرته من

---

(١) المصدر المذكور (ص ٢) .

الصين إلى مراكش ، ومنذ القرن السابع حتى الآن ، قد سار فى كل خطوة بمحاذاة مجتمعات إسلامية دون أن يقف عندها ، فكان كل همه أن يدور حولها ويتجاوزها ، ومع ذلك فإن دراسة هذه المجتمعات الإسلامية التى تمثل عددا لا يمكن تجاهله على سطح الكرة الأرضية ـ لا تحمل كثيرا من الصعوبات أو التعقيدات ، إنهم عدة مئات من ملايين الناس لديهم توافق معين فيما يتعلق بقانونهم الأساسى ، ويعيشون تحت أعيننا ، وقد عقدت أوروبا معهم علاقات اقتصادية وسياسية . وربما كان « فوكونيه » شخصيًا على جهل بما يأمر به الشرع الإسلامى فى هذا الموضوع على الرغم من أنه إشارة إليه غير مباشرة . وقليلا ما يهمنا الدافع الذى حتم هذا الإغفال المقصود ، لكنا نلاحظ فحسب أن نقصا خطيرا نشأ ـ فى دراسة فوكونيه ـ بسبب هذا الإغفال حيث جاءت نتائج الدراسة عن استقراء غير كامل [1] .

ونقول : وخطورة السلوك الذى لجأ إليه فوكونيه لا يقتصر فقط على مجرد الجحد والإنكار للإسلام والمسلمين فى محاولة غير أمينة لإخفاء كنوز الإسلام وحقائقه العلمية الباهرة ، وإنما يتعدى ذلك بكثير لأن النتائج التى توصل إليها فى دراسته للمسئولية زعم فيها أن قصر المسئولية على الإنسان البالغ المختار كان ثمرة من ثمرات العقل الأوروبى وحده بسبب التطور والتقدم والمعرفة والعلم ، ولا يخفى ما فى هذا الزعم من جحد وإنكار لفضل الإسلام وسبقه ، فضلا عن رميه بالجمود والتخلف وعدم صلاحيته لتنظيم الحياة فى كل زمان ومكان .

وقد ادعى « فوكونيه » أنه أحصى واستقرأ الأنظمة العقابية خلال تاريخ طويل لعديد من المجتمعات المتنوعة إلى أقصى حد ابتداء من القبائل الاسترالية وقبائل شمالى أفريقية حتى أوروبا الحديثة مارا بالصين والهند البرهمية وفارس ، وبنى إسرائيل ، واليونان ، والجرمانيين والرومان ومجموعة الشعوب المسيحية . ثم وصل إلى النتيجة المزورة والتى أخذت كمسلّمة .

---

(١) نفس المرجع ، (ص ٢٢٧) .

والواقع الذى لا نشك فيه أنه معروف تماما لدى « فوكونيه » أن الشريعة الإسلامية ـ دونما حاجة إلى تطور منذ ثلاثة عشر قرنا ـ هى التى أعطت للإنسانية قرارها الكامل والمفاجئ لكل الأعراف والتقاليد والمجتمعات التى درسها « فوكونيه » فى جملة قصيرة محكمة ترفع المسئولية عن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبى حتى يكبر ، وهى التى قررت أيضا : أن العجماء جرحها جبار . بينما ظلت أوروبا بعد ذلك لفترة طويلة تصدر أحكامها على الجماد والحيوان بالسجن والإحراق والإعدام .

والمؤسف حقا أن تُتخذ دراسة المسئولية التى قام بها « فوكونيه » والتى هضم الإسلام فيها أبسط حقوقه نبراسا لبعض المتخصصين فى دراسة الإسلام يهتدى به ويسير على نهجه ومنواله ، ويضفى عليه صفات العلم والإجلال والتقدير .

يقول الدكتور على عبد الواحد ، عن المنهج الذى سلكه فى رسالته عن المسئولية والجزاء : « يتفق هذا المنهج فى جملته وفى معظم تفاصيله مع المنهج الذى سار عليه أستاذنا العلامة « فوكونيه » فى مؤلفه القيم عن المسئولية ، والنظرية التى سننتهى إليها مقتبس معظم عناصرها من نظريته [1] .

والسؤال الصارخ الآن : لماذا نظل أسرى هذه الهياكل الأكاديمية الوثنية رغم عجزها وإخفاقها بينما نملك نحن كنز القيم والمبادئ والحقائق من الوحى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ أما آن الأوان كى نتحرر من هذا المنطق التقليدى الذى يجعل منا قطيعا من التابعين فى المساندة العلمية لهذه المناهج البشرية بينما تؤكد أبحاثنا وتثبت دائما عجز هذه المناهج وإفلاسها ، ومع هذا العجز والإفلاس تصر من جانبها على تجاهل مبادئ ديننا الغنية المعطاءة كمالا وحقا ، والمنزهة عن الخطأ والنقص ؟

---

(١) المسئولية والجزاء ، الدكتور على عبد الواحد وافى (ص ٧) .

إن عبء ثورة علمية يبلغ مناهج الوحى فى المسئولية ويعرضها على الناس كافة يقع على كواهل علمائنا فى مواجهة هذا الاضطراب العقلى الذى نسب خطأ إلى مقاييس الخير والجمال والواجب إذ ليس من وظيفة العقل البشرى أن يشرع لنفسه أو لغيره فى هذا المجال مسئولية ما ، فهذه أمور داخلة فى نطاق التشريع والتشريع وقف على الله الذى يقول : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل:١١٦] ، ثلاث مرات يوصف بالكذب فى آية واحدة ، أولئك القائلون فى المسئولية والتكاليف بغير وحى ، الباحثون عن الحق والواجب بغي هدى والمفتانون على عقولهم وأرواحهم حين زاولوا مهمة مقصورة على الوحى فكانوا لأنفسهم من الظالمين ، ولبنى جنسهم مضلين .

إن الأمر الذى نريد تأكيده مرة أخرى هو إننا آثرنا الالتزام بأطراف المسئولية الثلاثة التى تضمنتها الآيات القرآنية التى أوردناها آنفا ، ونحن أعظم ما نكون سعادة بهذا الإيثار الذى لمسنا أثره الفعال فى حل كثير من الشبهات والمشاكل التى بدت غاية فى البساطة والوضوح بينما هى فى منهاج الجدل الفلسفى غاية فى التعقيد والغموض والتناقض .

وإن الواقع العلمى للتفكير الفلسفى والأخلاقى والاقتصادى والاجتماعى والقانونى ليشهد بوضوح الساحة الشاسعة التى تذرعها عقول المفكرين من أقصى التجرد الذى لا يرتبط بالواقع فى شيء إلى أقصى الارتباط بالأرض ، واحتياجاتها والانغماس فى ترابها .

ومهما زخرفوا آراءهم وأفكارهم عن المسئولية والواجب والفضيلة فستظل كل مدرسة تكشف عن سوءات المدارس الأخرى دون أن تتنبه إلى سوءات نفسها ، لكن الآخرين يقومون عنها بهذه المهمة .

الفصل الرابع
القرآن الكريم يربط التنمية الاقتصادية بالتنمية الدينية سلبا وإيجابا

وإذن فليس أمام المسلمين من واجب سوى أن يستعيدوا الثقة بالله ، والثقة بأنفسهم وما وهبه الله لهم من إمكانات وطاقات ، يستطيعون بها أن يفعلوا الكثير لدينهم ولأنفسهم ولأمتهم إذا هم أفاقوا واستيقظوا على ذكر الله فوجدوا أنفسهم وآمالهم .

ومشكلة المشاكل فى إنسان اليوم ـ خصوصا فى العالم الإسلامى ـ أنه ينسى نفسه ، ويغفل عما وهبه الله من قدرات وطاقات .

وليس فى مخلوقات الله ما يشارك الإنسان هذه الظاهرة ، فكل الكائنات الحية ـ فيما عدا الإنسان ـ تباشر صلاحياتها بصورة فطرية دون تقاعس أو إهمال .

والسبب المباشر لهذه الظاهرة فى الإنسان حددها القرآن بوضوح فى انصراف الإنسان عن خالقه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر:١٩] .

وسياق الآية الكريمة يدل على أن نسيان النفس معصية وعقوبة فى وقت واحد ترتبت على نسيان الله . فهى معصية تحمل عقوبتها معها ، وجزاؤها من جنسها .

وقد تكفلت آيات أخرى بتفصيل هذا الجزاء الذى جاء مجملا فى الآية السابقة بنسيان النفس ، فبينت أن معصية نسيان الله بالإعراض عن ذكره تكون سببا للشدة والضنك فى الدنيا ، والعمى والظلمة فى الأخرى ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ

وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦] .

ويلاحظ بوضوح أن العقوبة الدنيوية التى ذكرتها هذه الآية تشتمل على خلل جسيم يتعرض له الجانب الاقتصادى فى الحياة بحيث لا تطاق المعيشة من شدة الضنك فهى عقوبة مادية ونفسية .

وإذن فنسيان الله يؤدى إلى نسيان النفس ، ونسيان النفس فسرته الآية الأخيرة بالآثار التى تترتب عليه من انهيار اقتصادى واضطراب نفسى ، ولا يتأتى هذا الانهيار الاقتصادى والاضطراب النفسى إلا بنسيان وإهمال النمو والاستقرار . وبداهة تتعلق هذه الأسباب المهملة تعلقا مباشرا بالإمكانات والقدرات التى منحها الله للإنسان ففرط فيها وغفل عنها وأهملها ، ومع هذا النسيان والتفريط والغفلة يكون الضياع واليأس والهوان وفقدان الطريق الصحيح .

وقد اطرد التصريح باقتران الانهيار الاقتصادى والنفسى فى القرآن كنتيجة لجحود النعم فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢] .

فالجوع والخوف صورتهما هذه الآية ثوبا واحدا يتجاوز الرَّهَقُ به حاسة اللمس إلى حاسة المذاق ، وصدق الله العظيم ، فللجوع والخوف طعم ما أمَرَّ مذاقه ، وما أبغض غصته . ولا يخفى أن هذه العقوبة مردها إلى نفس الأسباب . وقد استعملت الآية الأخيرة للتعبير عنها كلمة : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ والكفر بالنعمة هو جحودها وإنكارها وهذا يؤدى إلى إهمالها وتعطيلها ، فالطاقات والمواهب هنا موقوفة معطلة بسبب جحدها أو انحرافها . وهذا التعطيل يترتب عليه نفس الخلل الذى أشارت إليه الآيات السابقة جميعها .

ومن منطلق اطراد هذه الحقائق نفسها فى القرآن ، صيغت بأساليب متعددة ولكنها تؤدى إلى نفس المعنى فى مثل قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ .

[الأعراف:٩٦]

أجل : بركات من السماء والأرض ، ذلك أن المواهب التى اختص الله بها الإنسان ، ومنحها له لا تحصى ولا تُعد ، فقد زوده خالقه العظيم بطاقات عقلية ونفسية ومادية هائلة تمكنه من الوفاء بعطاءٍ يتجاوز الواجبات ويفوق الخيال حين يستثمر مواهب الله فيه .

والشاهد الذى لا يُرد مؤيدا لهذه الحقيقة هو عطاء الإنسان المسلم فى الصدر الأول من الإسلام ، وهو ما يجب أن يتكرر مرة أخرى إذا ما أراد الصادقون العز والغنى فى الدنيا والآخرة .

بيد أن العجز والسلبية واللامبالاة التى تعد صفات سائدة فى إنسان هذا العصر أمور أبعد ما تكون عن الإيمان والتقوى وذكر الله ، بل هى نتائج حتمية لنسيان الله وفقدان الإيمان والتقوى كما قررت هذه الآيات ، فالإيمان والتقوى فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ هما ذكر الله وذكر ما وهبه للإنسان من القدرة والطاقة وسائر النعم ، واستثمارها فى فتح البركات من السماء والأرض حتى يتحقق الرخاء وتطمئن القلوب وتستقر النفوس .

ولكن لماذا تركيز الآيات على توفير الرخاء فى المعاش ، وتحقق الأمن والأمان والطمأنينة عندما تتوجه الطاقات والإمكانات والقدرات الإنسانية بصدق وطهارة وإيجابية إلى تحقيق المراد منها وفق منهاج الإسلام ؟

هذا يعنى ولا شك أن من الحكمة المقصودة فى القرآن لفت نظر المسلمين إلى

تأثير الحياة العملية وأهميته القصوى فى صياغة النفس الإنسانية وفق منهاج الخالق العظيم ، وأظهر ما فى الحياة العملية هو جانب المعيشة أو الاقتصاد وغنى عن البيان أن ذكر السماء والأرض فى الآية السابقة كمصدرين لهذه البركات فيه استجابة كاملة لحل المشكلة الاقتصادية والمشكلة النفسية على حدٍّ سواء .

ونخلص من هذه الآيات بدلالات غاية فى الأهمية نذكر منها ما يلى :

* إن الربط بين صلاح الجانب الاقتصادى أو فساده وبين ذكر الله سبحانه أو الإعراض عن ذكره واطراد التلويح بهذا الربط يعنى إلحاح العظة القرآنية على المسلمين فى تعريفهم بأن عمارة الحياة الدنيا جزء لا يتجزأ من الإسلام ، وأن طاعة الله فى الجانب الاقتصادى هى أقصر الطرق إلى تحقيق الرخاء والطمأنينة بمفهومها الإسلامى .

* إن الالتزام بمنهاج الإسلام فى الجانب الاقتصادى يظهر أثره سريعا وقويا فى إكساب المجتمع الإسلامى ملامحه الصحيحة حيث تكون علاقته بواقع الناس ومعيشتهم علاقة مباشرة ومؤثرة ، وهى بالتالى تنعكس بلا إبطاء على حالتهم النفسية رضا أو سخطا ، وعلى حالتهم العقلية اقتناعا أو تبرما ، وعلى حالتهم الأخلاقية قناعة بالحلال وعفة عن الحرام وإيثاراً لما عند الله ، أو إلفًا للحرام وجرأة على أكل السحت والربا . وهذا التأثير المباشر للاقتصاد والمعاش جعل له المكان المقدم فى المسئوليات التى تعلقت بذمة كل مسلم .

* إن حالة التيه والحيرة والبلبلة والضعف والتبعية التى تتحكم فى حياة الغالبية العظمى من الأفراد المسلمين والمجتمعات الإسلامية سواء ما كان منها فى جانب العقيدة أو العبادة أو الأخلاق مَرَدُّه إلى إهمال المنهاج الإسلامى فى الجانب الاقتصادى الذى أدى بدوره إلى فصل العبادات عن الحياة العملية كلها .

* لا خلاص للمسلمين مما هم فيه من ضعف وضياع إلا بالعودة لحقيقة دينهم

والطريق إلى هذه العودة هى فى البدء بالحياة العملية إلى جانب الإيمان النظرى ، والاقتصاد هو عصب هذه الحياة وفيه سر اعتدالها واستقامتها ، فالعمل على صبغ الحياة به فريضة كل مسلم يرجو لقاء الله .

* إن فى الإنسان المسلم طاقات هائلة مذخورة ، وقدرات منظورة وغير منظورة ، ومواهب ظاهرة وخفية كلها مهيأة لعطاء موصول بالله حين تستقيم على منهاجه القويم ، وهى قادرة على تحقيق طاعة الله بالحكمة والتوفيق تحت أى ظرف من الظروف وفى مواجهة أية عقبة ، وحين يكتشف المسلم هذه الطاقات ، وينفض عن نفسه عوامل الغفلة ، ويتخلص من نسيان الله ونسيان نفسه ، فلسوف يعرف ويدرك أنه على الطريق الصحيح ، وأن الله معه يسانده ويشد من أزره .

والحق أنه ليس أمامنا من سبيل إلا أن نعترف ـ والأسى يملأ قلوبنا ـ أن عامة المسلمين قد أصبحوا بمنآى بعيد عن هذه المفاهيم القرآنية التى لا يرجى تغيير حيوى إلا برعايتها ، بل إن عرى الإيمان بالنفس ، والثقة بطاقاتها وقدراتها المستمدة من الله أصبحت عند الكثيرين واهية ضعيفة ، فاختلط العجز بالورع ، والسلبية بالتقوى ، والكسل والخنوع بالزهادة ، والرياء والنفاق بالمداراة ومكارم الأخلاق .

وانقلب التوكل إلى تواكل ، وضاع المسلمون من أنفسهم ضيعةً ليس لها إلا الله .

إن أكره شيء إلى النفس هو أن يتحول التذكير إلى بكاء ونواح ، وتتحول العظة إلى تشنج وصياح ، ولذا سنكتفى من هذه الظواهر السلبية بما ذكرنا كى نمضى مسرعين إلى العمل الذى نبتغى من ورائه التغيير ، ولابد أن يبدأ كل منا بنفسه ، ففى الوحى قانون قرآنى يقول : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] .

والبدء بالنفس يعنى البداية من الأساس وإننى إذ أتوجه بالخطاب إلى كل مسلم ، فإننى فى نفس الوقت أخص أولئك الذين صحت عزائمهم وتجردت نواياهم ،

وتهيأت نفوسهم لبذل والعطاء فى سبيل إحياء التطبيق العملى فى الواقع اليومى لمنهاج الفطرة السمحاء .

ما هى قدراتنا وما هى إمكاناتنا وطاقاتنا التى يمكن أن نحقق بها ما نصبوا إليه من غايات ؟

لقد أعفانا القرآن الكريم والسنة المطهرة من تكلف الإجابة على هذا السؤال . وإذن فإن مهمتنا تنحصر فى اكتشاف هذه القدرات من واقع القرآن والسنة .

ولقد يستغرق اكتشاف الإجابة على هذا السؤال عشرات من الصفحات لكنها مفهومات أساسية ، يجب أن تتحول إلى عقيدة المسلم وإيمانه وتصديقه حتى يتسنى له أن ينطلق بها فى صمود لا يعرف التراجع ، وثقة لا يعتريها التردد ، ويقين لا يخالطه شك .

ولقد يسر الله لنا فى الكتاب الكريم والسنة المطهرة نبعًا صافيًا لا ينضب ولا يغيض فاستقينا منه معرفة يقينية أذهبت الظمأ وروت الغلة ، ولسوف نشاهد ونلمس بيقين كل هذه الحقائق فيما يلى من أبحاث عن الإنسان .

والله المسئول أن يشرح صدورنا بالحق وللحق ، ويرزقنا الإيمان القويم والصراط المستقيم ، والقلب السليم ، ويجنبنا الخطأ ويعيذنا من الفتن إنه سميع مجيب .

*****